

السيرة إلى التوحيد وهدى الشرك

الحمد لله رب العالمين،
حمداً يليق بجلاله وعظيم
سلطانه، والصلاة والسلام
على المبعوث رحمة للعالمين،
محمد . وبعد:

إعداد
زكريا حسيني

عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إلا تريحني من ذي الخَلْصَةِ» فقلت: بلى، فانطلقت في خمسين ومائة فارس من أحمس، وكانوا أصحاب خيل، وكنت لا أثبت على الخيل، فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فضرب يده على صدري حتى رأيت أثر يده في صدري، وقال: «اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً». قال: فما وقعت عن فرس بعد، قال: وكان ذو الخَلْصَةِ بيتاً باليمن لختعم وبجيلة فيه نُصُبُ تُعْبُدُ يقال الكعبة، قال: فاتاها فحرقها بالنار وكسرها، قال: ولما قدم جرير اليمن كان بها رجل يستقسم بالأزلام، فقبل له: إن رسول رسول الله ﷺ هاهنا، فإن قدر عليك ضرب عنقك، قال: فبينما هو يضرب بها إذ وقف عليه جرير قال: لتكسرنها ولتشهد أن لا إله إلا الله أو لأضربن عنقك، قال: فكسرها وشهد، ثم بعث جرير رجلاً من أحمس يكنى أبا أرطاة إلى النبي ﷺ يبشره بذلك، فلما أتى النبي ﷺ قال: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق ما جئت حتى تركتها كأنها جمل أجرب، قال: فبرك النبي ﷺ على خيل أحمس ورجالها خمس مرات.

هذا الحديث أخرجه الإمام البخاري في تسعة مواضع من صحيحه ثلاثة منها في كتاب الجهاد: في باب (حرق الدور والنخيل) برقم (٣٠٢٠) وباب (من لا يثبت على الخيل) برقم (٣٠٣٦) وباب (البشارة في الفتوح) برقم (٣٠٧٦) وفي موضع واحد في كتاب مناقب الأنصار باب (ذكر جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه) برقم (٣٨٢٣)، وكتاب المغازي في باب (غزوة ذي الخَلْصَةِ) بالأرقام (٤٣٥٥، ٤٣٥٦، ٤٣٥٧)، وفي كتاب الأدب باب (التبسم والضحك) برقم (٦٠٩٠) وفي كتاب الدعوات باب (قول الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾) برقم (٦٣٣٣)، كما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة باب «من فضائل جرير بن عبد الله رضي الله عنه» برقم (٢٤٧٦). وأخرجه أبو داود في سننه في كتاب الجهاد باب (في بعثة البشراء) برقم (٢٧٧٢)، وأخرجه النسائي في الكبرى في السير وفي المناقب، وأخرجه الإمام أحمد في المسند بالأرقام (٤/٢٦٠، ٣٦٢، ٣٦٥).

لا راحة لصالحى أهل الإسلام

مهمة الرسل دعوة الناس إلى

على من أخذ بالأَسباب الأيْنسى دعاء

كخرز العقيق، وذو الخلصة اسم للبيت الذي كان فيه الصنم، وقيل: اسم البيت الخلصة، واسم الصنم ذو الخلصة، وحكى المبرد أن موضع ذي الخلصة صار مسجداً جامعاً لبلدة يقال لها العبلات من أرض خثعم، ووهم من قال إنه كان في بلاد فارس.

كان بيت في الجاهلية لخثعم يقال له ذو الخلصة، وخثعم قبيلة شهيرة ينتسبون إلى خثعم بن أنمار بن إراش بن عنز بن وائل ينتهي نسبهم إلى ربيعة بن نزار إخوة مضر بن نزار جد قريش، وقد ذكر ذو الخلصة في حديث أبي هريرة عند الشيخين في كتاب الفتن مرفوعاً: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب اليات نساء دوس حول ذي الخلصة»، وكان صنماً تعبد دوس في الجاهلية. قال ابن حجر: والذي يظهر لي أنه غير المراد في حديث جرير هذا، لأن دوساً قبيلة أبي هريرة ينتسبون إلى دوس بن عدنان- بالثاء المثلثة- بن عبد الله بن زهران ينتهي نسبهم إلى الأزدي، فبينهم وبين خثعم تباين في النسب والبلد، وذكر ابن دحية أن ذا الخلصة المراد في حديث أبي هريرة كان عمرو بن لحي قد نصبه أسقل مكة، وكانوا يلبسونه القلائد ويجعلون عليه بيض النعام ويذبحون عنده، وأما الذي لخثعم فكانوا قد بنوا بيتاً يظاهون به الكعبة، فظهر الافتراق وقوي التعدد، والله أعلم.

جاء في بعض روايات الحديث: «والكعبة اليمانية والكعبة الشامية». قيل: هو غلط والصواب اليمانية فقط، سموها بذلك مضاهاة للكعبة، والكعبة البيت الحرام بالنسبة لمن يكون جهة اليمن شامية. فسموا التي بمكة شامية والتي عندهم يمانية تفريقاً بينهما. وقوله ﷺ: «الأ تريحيني»: بفتح اللام مخففة

راوي الحديث:

هو جرير بن عبد الله بن جابر بن مالك بن نصر بن ثعلبة بن جُشم بن عوف، الأمير النبيل الجميل، أبو عمرو، وقيل أبو عبد الله البجليُّ القسريُّ، وقسر من قطحان، وجرير من أعيان الصحابة وبايع النبي ﷺ على النصح لكل مسلم، وفي مسند أحمد بسند قوي عن جرير بن عبد الله قال: لما دنوت من المدينة أنخت راحلتي، وحللت عيبتى ولبست حلتي ثم دخلت المسجد فإذا برسول الله ﷺ يخطب فرماني الناس بالحدق. فقلت لجليسي: يا عبد الله هل ذكر رسول الله ﷺ من أمري شيئاً؟ قال: نعم، ذكرت بأحسن الذكر، بينما هو يخطب إذ عرض له في خطبته، فقال: «إنه سيدخل عليكم من هذا الفج من خير ذي يمن، ألا وإن على وجهه مسحة ملك». قال: فحمدت الله.

وعنه رضي الله عنه قال: ما رأيت رسول الله ﷺ إلا تبسم في وجهي، قال: «يطلع عليكم من هذا الباب رجل من خير ذي يمن، على وجهه مسحة ملك»، وإسناده صحيح. وروى البخاري ومسلم عن همام قال: رأيت جرير بن عبد الله بال ثم توضأ ومسح على خفيه، ثم قام فصلى، فسئل فقال: رأيت النبي ﷺ فعل مثل هذا، قال إبراهيم فكان يعجبهم، لأن جريراً من آخر من أسلم.

واعترل جرير علياً ومعاوية حتى توفي، وروي أن علياً أرسل إليه ابن عباس والأشعث فقالا: أمير المؤمنين يقرئك السلام، ويقول: نعم ما رأيت من مفارقتك معاوية، وإني أنزلك بمنزلة رسول الله ﷺ التي أنزلكها. فقال جرير: إن رسول الله ﷺ بعثني إلى اليمن أقاتلهم حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا حرمت دماؤهم وأموالهم، فلا أقاتل من يقول لا إله إلا الله.

وتوفي جرير سنة إحدى وخمسين، وقيل سنة أربع وخمسين، فرضي الله عنه وأرضاه.

شرح الحديث:

قوله: «غزوة ذي الخلصة» بفتح الخاء واللام والصاد، وحكى ابن دريد فتح أوله وإسكان ثانيه، وحكى ابن هشام ضمها، وقيل بفتح أوله وضم ثانيه، والأول أشهر، قاله الحافظ في الفتح، وقال: والخلصة نبات له حب أحمر

الابزوال معالم الشرك بالله عزوجل

التوحيد الخالص وتعبيدهم لرب الناس

الله؛ فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن

طلب تضمن الأمر، وخص ﷺ جريراً بذلك لأنها كانت في بلاده وهو من أشرف قومه، والمراد بالراحة هنا راحة القلب؛ وما كان شيء أتعب لقلب رسول الله ﷺ من بقاء الشرك بالله تعالى.

قوله: «فبرك النبي ﷺ على خيل أحمس ورجالها خمس مرات» أحمس على وزن أحمر هو إخوة بجيلة رهط جرير ينتسبون إلى أحمس بن الغوث بن أنمار، وبجيلة اسم امرأة نسبت إليها القبيلة المشهورة. قال الحافظ في الفتح: وفي العرب قبيلة أخرى يقال لها أحمس ليست مرادة هنا ينتسبون إلى أحمس بن ضبيعة بن ربيعة بن نزار.

وأما برك وفي رواية ببارك وفي الثالثة دعا لنا ولأحمس خمس مرات. أي بالبركة.

قول جرير رضي الله عنه: «وكننت لا أثبت على الخيل فضرب على صدري حتى رأيت أثر أصابعه في صدري». أي أن النبي ﷺ فعل ذلك ثم دعا له بقوله ﷺ: «اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً». الذي لا يثبت على الخيل يقال له رجل قلغ وخاصة الذي لا تثبت قدمه عند الحرب، فلذلك دعا النبي ﷺ لجرير أن يثبتته الله تعالى على فرسه، وزاد في دعائه له أن يجعله الله تعالى هادياً مهدياً أي هادياً لغيره مهدياً في نفسه.

قوله: «فكسرهما وحرقهما» أي: هدم بناءهما، ورمى النار فيما فيها من الخشب.

وقوله: «ولما قدم جرير إلى اليمن» يشعر باتحاد قصته في غزوة ذي الخلفة بقصة ذهابه إلى اليمن، وكأنه بعد فراغه من هدم ذي الخلفة وتحريقها، وأرسل رسوله ليبشر رسول الله ﷺ استمر ذاهباً إلى اليمن لدعوة أهلها إلى الإسلام وتعريفهم بخبر رسول الله ﷺ وإقامة الدين فيهم. قوله: «يستقسم بالأزلام» أي يستخرج بواسطة

ذلك غيب ما يريد أن يفعله ويمضي فيه من خير أو شر، والاستقسام بالأزلام وهي الأسهم التي لا ريش لها واحداً «رَلَمَ» فكان الواحد منهم إذا أراد فعل أمر «أخذ ثلاثة أسهم وكتب على أحدها [افعل] وعلى الثاني: [لا تفعل] وترك الثالث عُقْلاً أو كتب عليه [عُقْل]. ويقرع بها فإن خرج الذي فيه الأمر بالفعل فعل، وإن خرج الذي فيه النهي انتهى، وإن خرج العُقْلُ أعاد، ويعتقدون أن في ذلك الخير أو هو الذي يترتب عليه اختيار الخير للفاعل غير رادين الأمر لصاحب الأمر وهو الله رب العالمين، وقد حرم الله تعالى الاستقسام بالأزلام في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ عطفاً على المحرمات في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ الآية.

قوله: «ثم بعث جرير رجلاً من أحمس يكنى أبا أرطاة». قال ابن حجر: وقع مسمى في صحيح مسلم بـ «حصين بن ربيعة»، ولبعض رواة مسلم «حسين» وهو تصحيف، قال: ومنهم من سماه «حصن»، وقلبه بعض الرواة فقال: «ربيعة بن حصين»، ومنهم من سماه «ارطاة»، والصواب: أبو أرطاة حصين بن ربيعة وهو ابن عامر بن الأزور، وهو صحابي بجلي لم أر له ذكراً إلا في هذا الحديث. اهـ.

قوله: «كانها جمل أجرب» كناية عن نزع زينتها وإذهاب بهجتها، وقال الخطابي: المراد أنها صارت مثل الجمل المطلي بالقطران من جربه، إشارة إلى أنها صارت سوداء لما وقع فيها من التحريق. ووقع في بعض الروايات: «أجوف» بدلاً من أجرب، والمعنى أنها صارت صورة بغير معنى. والأجوف الخالي الجوف مع كبره في الظاهر. والله أعلم.

وفي الحديث من الفوائد الجملة والمطالب العظيمة الكثير وأولها وأهمها حرص النبي ﷺ على توحيد الله تبارك وتعالى، وأنه أظهر حزنه وتعبه لوجود أوثان أو أصنام تعبد من دون الله تعالى في أرض الله، وأن همه كان انتشار الناس من الشرك إلى التوحيد، والا يتعلق العبد في أي أمر من أموره إلا برب العالمين الذي خلقه وسواه وجعله في أحسن تقويم، وإن كثيراً من المجتمعات الإسلامية تعج

وبشيع فيها الوان من الإشرار بالله تعالى في الوهيته خاصة، فإن كثيراً من المسلمين تتعلق أمالهم ويتوجهون بحوائجهم إلى القبور وأصحابها راجين منها دفع البلاء والضرر، وجلب العافية والنفع، وحتى من لم يتعلق بهؤلاء المقبورين فإنه لا يجرؤ على هدم شيء من قبائهم وما بنى عليهم وذلك خشية أن يصيبه صاحب القبر بضر إن هو فكر في ذلك أو تجراً عليه، ويمتد هذا الاعتقاد حتى يشمل الذبح عند هذه القبور، والنذر لأصحابها وإقامة الاحتفالات، بل قد يصل الأمر إلى تقديم شكاوى لبعض أصحاب هذه القبور ليرد إليه مظلّمته ممن ظلمه، ومنهم من يطلب الولد ممن يظن أنه يستطيع أن يمنحه الولد من هؤلاء، ومهمة الرسول ﷺ بل وظيفة الرسل جميعاً والعلماء من بعدهم، وظيفتهم تعبيد الناس لرب الناس، وإنك لتعجب ممن ينكرون على الرسل ومن ينكرون على العلماء دعوتهم إلى توحيد الله عز وجل، فهل الداعي أو العالم يطلب من المدعو أن يترك عبادة شيخه ليعبد شيخ الداعي، حتى يظن أنه يريد صرفه عن عبادة مخلوق ليعبد مخلوقاً آخر؟

إن هذا لشيء عجاب، إنما يدعو الرسل والعلماء - وهم ورثتهم - إلى عبادة الله وحده وترك عبادة غير الله، إن دعوة الرسل هي دعوة لجميع الخلق أن يتوجهوا بعبادتهم لخالق الخلق جميعاً ورازقهم ومدبر أمورهم من بيده ملكوت كل شيء، ولكن إذا ذهب العقل ضل صاحبه وغوى، وتوجه لعبادة المخلوق غير مفرق بين من يملك النفع والضرر والموت والحياة والنشور وبين من لا يملك من ذلك شيئاً لنفسه فضلاً عن أن يملكه لغيره.

ولا شك أن الهمم الأكبر الذي يوجع القلب ويتعبه إنما يتمثل في وجود من يشرك مع الله أحداً، وإن آيات القرآن الكريم وأحاديث سيد الخلق ﷺ إنما تفيض بهذا الأمر، وهي معلومة لكل ذي عينين بل لكل ذي قلب سليم.

إنه يجب على المسلمين في كل بقاع المعمورة أن يزيلوا ما يفتن الناس عن دينهم سواء كان بناءً أم صنماً أم وثناً، وإن

التمائيل التي وضعت بالميادين في بلاد المسلمين لهي نذير شر وخطر على عقائد المسلمين، ولا سيما في زمن الجهل بالدين، ولكن إذا كان زعماء بعض الطوائف يقيم على قبره بنيان ويذكر بكل فخر أنه بنى على هيئة الكعبة وأن أبناء هذه الطائفة يطوفون بالقبر كما يطوف المسلمون بالكعبة، فهؤلاء يناون بأنفسهم عن التوحيد ويلبسون عن الجهلة من أبناء المسلمين، ويصبح الإسلام في نظر أعداء الإسلام مجموعة من الخرافات والخزعبلات، والله لو أن المسلمين فقهوا الإسلام عقيدة وشريعة وعملوا بمقتضاه لغزوا وارتفعوا وما هانوا ولا ذلوا، وما استطاع أعداؤهم ولا تجرؤوا أن يطعنوا في الدين الحق الذي رضي الله لعباده ديناً، وأخبر سبحانه أنه لا يقبل منهم ديناً سواه.

قال الحافظ ابن حجر: وفي الحديث - من الفوائد - مشروعية إزالة ما يفتن به الناس من بناء وغيره سواء كان إنساناً أو حيواناً أو جماداً، وفيه استمالة نفوس القوم بتامير من هو منهم والاستمالة بالدعاء والثناء والبشارة في الفتوح، وقبول خبر الواحد، والمبالغة في نكابة العدو، ومناقب لجرير وقومه، وبركة يد النبي ﷺ ودعائه، وأنه كان يدعو وترّاً وقد تجاوز الثلاث - وهذا تخصيص لعموم قول أنس رضي الله عنه: «كان إذا دعا دعا ثلاثاً». فيحمل على الغالب، وكان الزيادة لمعنى اقتضى ذلك، وهو ظاهر في أحسن لما اعتمده من حض الكفر ونصر الإسلام ولا سيما مع القوم الذين هم منهم.

نسال الله العلي العظيم رب العرش العظيم أن يعز أهل التوحيد أهل الحق وأن يذل أهل الباطل أهل الشرك، وأن يهدي ضال المسلمين إلى هدي كتابه وسنة رسوله وأن ينشر لواء التوحيد في كل مكان من أرض الله، وأن يحيينا على توحيد سبحانه ويميتنا عليه، لا إله غيره ولا رب سواه، ولا معبود بحق إلا هو، وأن يحشرنا في زمرة الموحدين مع سيدهم محمد بن عبد الله ﷺ.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين.